العرب وتاريخ الجراحة

دعي الدكتور لاسارجل ـ أحد أطباء الجيش الفرنسوي ـ منذ شهر ديسمبر الماضي لتدريس قسم السريريات الجراحية في المعهد الطبي العربي بدمشق ، فافتتح دروسه بمحاضرة خاطب بها طلبة ذلك المعهد. ونحن نقتبس خلاصتها عن العدد الاخير من مجلته :

انني أهنىء نفسي بمجيئي اليكم لأشارككم في مهامكم التي تقومون بها في هذه العاصمة (دمشق) المملوءة بالتذكارات المجيدة

هذه هي العاصمة التي بها قام الامويون ـ بعد أن استرشدوا بارشادات جدودكم ـ مرسلين الى أقاصي مملكتهم الشاسعة الاطراف نوراً لا يزال دليلا على حضارتهم وعلمهم ونبوغهم

من منّا لم تحنّ نفسه الى ما في البلاد العربية من الجمال ، ومن منّا ـ بعد أن قُيّض له أن يكون في حضن البلاد الشرقية ـ لم يجعل دمشق مسرحاً لمخيلته وميدانا لافكاره ؟

أنا الذي شببت في مقاطعة لانغدوك [1] Languedoc التي لا تزال فيها آثار الفرسان العرب ، أنا تلميذ معهد مونبليه المشبع بالتذكارات العربية ، كانت تحنّ نفسي ـ منذ صباي ـ أكثر من كل أحد إلى معرفة حفدة أولئك الرجال وآدابهم وبلادهم وتاريخهم المجيد . كيف لا وهم الذين كان لهم التأثير الشديد في المدنية الاوربية . وهكذا بعد ان صرفتُ عشر سنوات متنقلا في شواطيء البحر المتوسط المرصّعة بالآثار القديمة أجيء اليكم وعيني حائرة بما في الأندلس من

(١) مقاطعة في جنوب فرنسا تمتد من الضفة اليمنى لنهر (رونه) على سيف البحر الابيض حتى تقرب من سفوح جبال البرنات . أفتتحها العرب في القرن الثامن الميلادي ، ولبثت مدة يسيرة من الزمن معدودة من الممالك العربية . ثم انتزعها من أيدي العرب شارل مارتل وبيبن وشارلمان

العجائب ، ونفسي معجبة بما حفظه التاريخ من المجد للاندلسيين النابغين

***

وانتقل الدكتور لاسركل الى ذكر تاريخ الطب والجراحة فقال انه ينقسم الى ثلاثة أدوار : دور نشأته في الشرق وبلوغه أوج الرقي عند اليونان والعرب، ودور الاصلاح السابق لعصر باستور ، والدور الثالث من زمن باستور الى الآن

اما الطب القديم فيرى المحاضر أنه أتى من الهند الى ما بين النهرين وانتقل منها بواسطة الفينيقيين الى الاغريق في البلاد اليونانية وفي مدرسة الاسكندرية . ووقفت الجراحة بعد اليونانيين عن التقدم لأن الشعب الروماني الفاتح كان قليل الاهتمام بالعلم . وفي نهاية الدولة الرومانية ترجمت كتب الاطباء اليونانيين الى السريانية ، وهي الحلقة المتوسطة بين العلم اليوناني والعلم العربي

وأول من يذكره التاريخ الطبي أهرون (سنة ٦٥٠ م) المولود في الاسكندرية فقد كتب بالسريانية كتابا في التشريح والجراحة ترجم بعدئذ بالعربية

ويعود الفضل في ترجمة المؤلفات باللغة العربية الى (خالد بن يزيد) حفيد معاوية أول الخلفاء الامويين في دمشق الذي كان يعرف السيمياء معرفة حسنة

ثم أتى حنين (٨٠٠ ـ ٨٥٠ م) فنقل الى السريانية كتب أرسطو وابقراط وجالينوس فعرفها العرب

ولما استقل أمويو الاندلس في القرن التاسع الميلادي ـ وهم الذين استولوا على بقايا خزائن الاسكندرية ـ جعلوا الاندلس مركزاً جذبوا به اليهم المؤلفات العلمية والعلماء . فحرّكت الغيرةُ العباسيين ـ مناظري الامويين ـ فمالوا الى جعل عاصمتهم (بغداد) متفوّقة على الاندلس . فنشأت عن هذه المناظرة حركة علمية كبيرة أوجدها المأمون ، وثابر عليها مَن بعدَه من خلفاء بغداد ، فاشرق في القرن العاشر الميلادي نور الرازي (٨٦٠ ـ ٩٣٠ م) أشهر من أنجبته البلاد

العربية ، فقد كتب ٢٢٦ كتاباً عن جالينوس وبولس الايجيني وايثيوس وبلينوس ، وألف كتاباً عن الحصبة والجدري اللذين كان اليونانيون يجهلونهما . وجاء بعده ابن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٦٧ م) وابن زهر (١١٦١ م) اللذان لايزال الغرب مديناً لهما ، وأبو القاسم الذي تعاطى الجراحة وكان أعظم من تفردوا بين أطباء العرب

ولكن تفوق الطب العربي لم يكن إلا في فني المعالجة والصيدلة ، وأما الجراحة فلم تنل من الحظ ماناله الفرعان الآخران ، وما ذلك إلا لأن العرب كانوا يأنفون من تشريح الجثث وتقطيع الجسد البشري إلا في الحروب

كان أبو القاسم يفضل المكواة على المشراط لأنها قاطعة للنزف ، وان اهمال هذه الآلة الحادة سبب تأخر الجراحة . ومع ذلك فان كتابه (التصريف) مؤلف جليل الفائدة انتقل الى القرون الوسطى . وقد ذكر فيه طب الاسنان ، وبوبه تبويباً كافياً ، ورسم صور الكلاّبات وهي شبيهة كل المشابهة للكلابات الامريكية المستعملة في أيامنا

ولابد من الاقرار بأن العرب ظلوا أسياد الطب والجراحة ومعلميها حتى منتهى القرن الخامس عشر ، لأن الذين مارسوا الطب في الغرب بعد أبي القاسم وان لم يكونوا عرباً فقد كانوا مستعربين ومن تلاميذ العرب . وكانت أوربة عندئذ في حالة تقرب من الهمجية فيها قوم كانوا يباهون بأنهم أميّون . ولما أفاق بعضهم من خمولهم ، ولمعت أنوار عقولهم ، وجّهوا أنظارهم الى العرب ليسترشدوا بهم

وقد بقيت هذه البقعة الصغيرة في الغرب ـ بفضل العرب الموجودين في الاندلس ـ مركزا للآداب والعلوم التي كانت مهملة في كل مكان ، حتى في القسطنطينية نفسها ، ولم يكن تلقي الدروس ممكناً ـ اذا استثنينا الشرق الاسلامي ـ الا في اسبانية وحدها . واني أذكر بين المترجمين الذين أمّوا هذه البلاد

للاستنارة بنورها (جاربار) في القرن العاشر الذي نقل العلوم العربية من (طليطلة) الى (ألمانيا) و (ريمس) ثم الى (ايطاليا) حيث سيمَ بابا . و (جارار كرامون) الذي بقيت كتبه المنقولة من العربية الى اللاتينية عدة قرون أساس التعليم الطبي

وكانت مدرستا (سالرن) و (مونبليه) على اتصال وثيق بصقلية والشرق والاندلس ، بسبب موقعهما الجغرافي ، فجمعتا كل الارث الجراحي الطبي من العرب ، وكانتا وحدهما تضيئان بنورهما الضئيل ما كان في أوربة من ظلمات.

وهكذا وصلنا الى القرن السادس عشر ، وهو فاتحة عصر جديد ، فان المؤلفات الطبية التى كانت تدرس في القرون الوسطى كانت ناقصة وغامضة في أكثر الاحيان ، وذلك طبيعي لتوالي النقل فيها من اليونانية الى السريانية فالعربية ومنها الى اللاتينة : فاعيد النظر في المخطوطات اليونانية التي كانت مبعثرة الى ذلك التاريخ في الخزائن وترجمت ترجمة دقيقة ونشرت في كل أوربا بفضل المطابع (سنة ١٤٩٠ ـ ١٥٤٠) فأوجد ذلك ميلا جديداً الى الطب اليوناني ثم بدأ دور الاصلاح ، وكان ذلك منتهى الدور الاول الذي أسهبتُ في وصفه لأبين عاطفة عرفان الجميل التي تحرّك قلب الغرب نحو اليونانيين وأطباء الخلفاء من بعدهم

﴿ كلمات جديدة ﴾

* يستعمل المعهد الطبي العربي في دمشق لفظ (علم الغَرِيزَة) ترجمةً للفظ (علم الفسيولوجيا)

* يستعملون فى دمشق كلمة (هاتف) ترجمة لكلمة (تليفون)

* شاع الآن استعمال كلمة « الثقافة » ترجمة لكلمة Cuolture ، وهي التى يترجمها الترك بكلمة « حرث »